منهج الإسلام فى الحفاظ على البيئة

شاءت إرادة الخالق العليم أن تبين لنا من خلال التوازن البيئى ووحدة النظام الكونى استمرارية المواد كأشياء، وتكرر الحوادث والظاهرات كعلاقات سببية لنراقبها وندركها وننتفع بها فى حياتنا الواقعية، بعد أن نقف على حقيقة سلوكها ونستدل بها على جلال الله وقدرته ووحدانيته.وإذا كان علم البيئة (أو الايكولوجيا Ecolgy) يُعنى - حسب تعريفه العلمى - بدراسة العلاقة المتبادلة بين الكائن وبيئته المحيطة به، فإن أهم ما يميز علاقة الإنسان بالبيئة فى عُرف الإسلام هو أنها علاقة توازن وألفة وانسجام لصالح الحياة والأحياء، بمن فيهم البشر الذين هم قمة الأحياء.

د. مصطفى فايز

www.mostafafayez.com

الإنسان والبيئة فى القرآن والسنة:

ولقد صور القرآن الكريم فى كثير من آياته الكريمة حقيقة هذه العلاقة الحميمة بين الإنسان؛ باعتباره أحد مكونات البيئة وعناصرها، بل هو المؤهل للإفادة من بقية المكونات والعناصر بما منحه الله من خصائص وملكات ومميزات تجعله الكائن الحضارى الوحيد- وبين البيئة باعتبارها الإطار الذى يعيش فيه الإنسان ولا يستغنى عنه لاستمرار حياته. وأخبرت هذه الآيات الكريمة بأن كل مكونات البيئة فى هذا الكون الفسيح قد أعدها الخالق اللطيف لتكون على أعلى درجة من الاستعداد والصلاحية لاستقبال الحياة ولكفالة الأحياء. فأقوات الأرض مقدرة فى تربتها وجوفها وأجوائها منذ خلقها الله سبحانه وتعالى وأعمل فيها حكمته؛ حتى أصبحت مهيأة لحضانة الأحياء وإقاتتهم، وما يزال البشر عيالاً على هذه المدخرات يكتشفون منها كل يوم جديدًا بإذن الله. وطاقة الشمس والقمر والنجوم تمد هذه الحياة بالقدر المطلوب من الحرارة والنور والجاذيبة، بلا زيادة وبلا نقصان، بل إن كل من فى السماء والأرض من نعم ظاهرة وباطنة مسخرة لتغذية الحياة وإعانة الأحياء.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾.

كما أن السنة المطهرة تزخر بما يؤكد هذا التصور الإسلامى، لعلاقة

المودة الصافية بين الإنسان وما تحتويه بيئته من موجودات حية وغير حية، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى الهلال فيستقبله بفرح وهو يقول: «**ربى وربك الله**»، وكان يستقبل قطرات المطر بفرح ويقول: «**إنها قريبة عهد بالله**»، وكذلك كان يستقبل كل وليد يولد ويقول عنه: «**قريب عهد بالله**»، وكان يقول عن جبل أحد: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»، فيخلع عليه الحياة ويشعر بالحب منه كما يشعر بالحب له. وقال أيضًا فى النخل: «**أكرموا عماتكم النخل**». فذلك منه تعبير عن وشائج الألفة بين الإنسان وعناصر البيئة.

ومن البين أن هذا الشعور بالقربى يلقى فى النفس بعدًا إيمانيًا يزيد من انفساحها للكون والإقبال على التعامل معه بكل الطاقات الإبداعية.

الإنسان يحارب نفسه:

إن افتقاد البشرية لهذا البعد الإيمانى والشعور النفسى القائم على المعرفة الصحيحة لطبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة كما يعرضها المنهج الإسلامى المتفرد، هو الذى يدلنا على طبيعة الحرب التى شنها الإنسان على نفسه فى غمرة انشغاله بثورة العلم والتقنية، فهى حرب ضد الحياة والتنمية على كوكب الأرض، والإنسان المتورط فيها هو ذاته الذى يسعى جاهدًا لأن يسكبها.. ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾.

وفى القرآن الكريم دعوة إلى تأمل كتاب الكون الجميل الصفات العجيب التكوين والتلوين؛ لكى يتدبره العلماء

الإنسان فى التصور الإسلامى هو أحد مكونات البيئة.. المؤهل للإفادة منها ما يجعله مطالبًا برعايتها والحفاظ عليها

الموصولون بخالقهم الواحد. وإن دعوة العلماء إلى تأمل الجمال الكونى هى فى حقيقتها دعوة إلى التفوق فى مجال العلوم الكونية المعنية بدراسة ظواهر الكون والحياة؛ للإفادة منها فى تطوير حياة البشرة وفهم أسرار الوجود قال تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٧- ٢٨].

ومن المنطقى أن يقابل هذا الجمال الكونى المقصود قصدًا فى خلق الكائنات بُعد جمالى فى العلاقة بين الإنسان والبيئة. فالتأمل فى السماء وما يدور فيها من كواكب وما ينشر

فيها من أفلاك يجب ألا يغفل عن زينتها التى نبه إليها الحق فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾.

لذا وعند النظر إلى الأنعام من زاوية فوائدها المادية وقيمتها كثروة حيوانية، يجب أن نحافظ على الصورة الجمالية التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

وعند استقصاء حكمة الخالق فى خلق الكون وخلق الحيوان وإنبات النبات، يجب أن نستشعر معنى البهجة التى تشيع فى أرجاء النفس عندما ترى منظر الخضرة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾.

بل إن الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله– يؤكد أهمية البعد الجمالى فى علاقة الإنسان بالبيئة إلى الحد الذى يجد فيه أن النظر البليد إلى الأرض والسماء دون إحساس بالجمال، هو نوع من المعصية ينبغى أن نتوب عنه.

ولما كان الجمال مقصودًا قصدًا فى خلق الكون، وكان البعد الجمالى ضروريًا فى علاقة الإنسان بالبيئة، فإن ما يحدث فى عصرنا من أشكال التلوث البيئى المختلفة يجب النظر إليه على أنه اعتداء أثيم على توازن البيئة المحكم، وتشويه متعمد لشكلها الجمالى. ومن ثم يكون العمل على حماية البيئة من مختلف أشكال التلوث، والإبقاء على الجمال فى صفحات الكون، مطلبًا إسلاميًا عزيزًا تستثار لأجله الهمم.

الكون مسخر لخدمة الإنسان:

ومن البين بنفسه أن حفظ الوجود الإنسانى متوقف على استمرار وجود العناصر البيئية من ماء وهواء وغذاء وغير ذلك. وعلى مستوى الترابط الوجودى بين الإنسان والبيئة (الكون) يؤكد القرآن الكريم أن كل الموجودات متساوقة مع بعضها البعض؛ حتى أنه لا يوجد شىء واحد من الموجودات هو فى وجوده مستقل عن المنظومة الوجودية العامة، فكل عنصر كونى مترابط معها فى كينونتها وسيرورتها. وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. أى بحكمة وترتيب يسهمان فى حفظ الوجود وتحقيق المسيرة الكونية كما أرادها الله تعالى لتبلغ غاياتها.

ويترتب على هذا المنطق العقدى، من ناحية أخرى، أن الكون بدوره رهين الوجود الإنسانى، فهو قد أعد لاستقباله واستمرار وجوده، وهذا عكس ما يبدو فى الظاهر من أن الموجودات مستقلة فى وجودها عن الوجود الإنسانى، وليست متوقفة عليه، لا ابتداءً ولا استمرارًا. وإلا فما المقصود من كلمة التسخير التى وردت فى آيات كثيرة امتنّ الله بها على عباده، فى مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ

وما فى الأرض﴾، وقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه﴾ وقوله جل وعلا: ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾ وقوله جل شأنه: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾، فكل ما حول الإنسان من هذا الكون الكبير إنما هو مسخر له، والأرض أمامه ممتدة وغنية بموارد الرزق ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

إن العلم والفكر اللذين لا يعمر بهما الكون، ولا تصلح بهما البيئة، ولا ترقى بهما الحياة فى جانبيها الروحى والمادى معًا، هما علم وفكر قاصران وضررهما أكثر من نفعهما.

البيئة الإسلامية السليمة، التى يتصالح فيها الفكر مع الواقع فى ظل المنهج الإسلامى الرشيد، فهى القادرة على بناء صرح الحضارة المتوازنة وفق تشريعات حكيمة تنظم الحياة فى كل جوانبها ومرافقها. ففى إطار التصور الإسلامى لقضايا الوجود الكبرى نجد أن العقيدة الإسلامية توفر لأتباعها أهم مقومات النظر السليم فى التعامل مع البيئة (الكون) المسخرة لهم من قبل الله. دون أدنى تناقض بين الفكر والواقع، ومن ثم يجد المسلم دافعًا أقوى مما لدى سواه فى الإقبال على قراءة أسرار الخالق المنبثة فى كتاب الخلق.

التوازن البيئى فى التطور الإسلامى:

والتصور الإسلامى للتوازن البيئى والاتزان الكونى على أساس

المسلم مأمور بأن ينشئ علاقة مودة ومنفعة لكل عناصر بيئته.. وإلا أوقع نفسه فى حرب لا طاقة له بها

التوحيد الخالص- فإنه ينقذ أصحابه من التخبط فى التيه بلا دليل، كالإحالة على الطبيعة، أو العقل، أو المصادفة، أو ما إلى ذلك. ولنا فى تاريخ الإسلام خير مثال، عندما أنتج علماء المسلمين فكرًا يتلاءم مع واقعهم، وقدموا للعالم واحدة من أزهى الحضارات التى عرفها التاريخ البشرى، كما قدموا حلولاً شافية للمشكلات البيئية التى واجهتهم على المستويين الفكرى والعملى.

وهنا نرى أهمية الدور الحيوى الذى يمكن أن يؤديه الفكر الإسلامى الرشيد فى مواجهة التحديات المعاصرة؛ إذا ما نجح فى إعادة صياغة المعادلة النفسية والاجتماعية للأمة، بحيث تصبح قابلة للتطور مع منجزات العلم والتقنية. ذلك أن العلم والتقنية يأتيان ثمرة لفلسفة وعقيدة وفكر متجدد، ومن ثم فإنهما يتجمدان فى مجتمع يغاير واقعه عقيدته السماوية السليمة وشريعته التى شرعها الله له.

لقد سبق الدين الإسلامى الحنيف إلى وضع تشريعات محكمة لرعاية البيئة وحمايتها من آفات التلوث والفساد، ورسم المنهج الإسلامى حدود هذه التشريعات على أساس الالتزام بمبدأين أساسين يحددان مسئولية الإنسان حيال البيئة التى يعيش فيها:

أما **المبدأ الأول** فهو «**درء المفاسد**» حتى لا تقع بالبلاد والعباد وتسبب الأذى للفرد والمجتمع والبيئة؛ حيث لا ضرر بالنفس، ولا ضرار بالغير، وأما **المبدأ الثانى** فهو «**جلب المصالح**» وبذل كل الجهود التى من شأنها أن تحقق الخير والمنفعة للجماعة البشرية.

وسطية الإسلام والحفاظ على البيئة:

أهم ما يميز المنهج الإسلامى فى الحفاظ على البيئة هو الأمر بالتوسط والاعتدال فى كل تصرفات الإنسان، باعتبار أن الحفاظ على البيئة هو الأساس فى منظومة التوازن البيئى المحكم الذى وهبه الله سبحانه وتعالى للحياة والأحياء فى هذا الكون. وهذا يعنى أن يتعامل الإنسان مع هذه النظم البيئية بما يمكنه من تطوير حياته دون إسراف فى استخدام الموارد الطبيعية أو جور على حقوق الآخرين.

ولقد أقام الإسلام بناءه كله على

الوسطية والتوازن والاعتدال والقصد، وذلك فى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾.

كما نهى الإسلام المسلمين عن الإسراف فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾، وقال عز من قائل: ﴿ **كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾. بل إنه دعا إلى الاعتدال حتى فى الإنفاق، فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾.

وفى السنة النبوية المطهرة أيضًا ينهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الإسراف فى استعمال الماء حتى ولو كان من أجل الوضوء، فقد روى عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بسعد وهو يتوضأ فقال: **«ما هذا الإسراف»**؟ فقال: أفى الوضوء إسراف؟ قال: **«نعم وإن كنت على نهر جار»**.

لقد أجمعت الدراسات التى أجريت حول مشكلات التلوث البيئى على وجود علاقة وثيقة بين إسراف الإنسان فى تعامله مع مكونات البيئة المختلفة وبين التلوث البيئى بجميع أشكاله. كما أن الإسراف يفضى إلى مشكلات بيئية أخرى لا يقتصر تأثيرها على الإنسان وحده، بل يمتد ليشمل باقى الأحياء التى تشاركه الحياة على كوكب الأرض. وإن ما تعانيه البيئة اليوم من تدهور شمل ثرواتها الطبيعية التى أوشك بعضها على النفاد، وغاباتها الشاسعة التى أزيل منها الكثير، بالإضافة إلى بعض أنواع الطيور والحيوانات والكائنات البحرية التى انقرضت، أو فى طريقها إلى الانقراض- ليس إلا نتيجة طبيعية لتدخل الإنسان الزائد عن الحد بما يفسد على البيئة نظامها المحكم الدقيق. ولا شك أن خير وسيلة لإنقاذ البشرية أو البيئة، من آثار الإسراف واستنزاف الموارد الطبيعية دون جدوى، أو اكترات بالأخطار، إنما يكون بالعودة إلى منهج الدين الإسلامى فى الوسطية والاعتدال، حيث «**لا ضرر ولا ضرار**».

تعاليم وتشريعات واضحة:

وهناك أيضًا العديد من التعاليم الإسلامية التى تحث على حماية البيئة والاهتمام بالنظافة العامة، فالإسلام بكماله وشموله لم يدع شيئًا فيه سعادة البشرية، ورقيها إلا ووضع له الضوابط الدقيقة والمعايير الواضحة. ولقد اقترنت النظافة والطهارة فى

الإسلام بالإيمان، واعتبر التلوث نجاسة كريهة يجب على المسلمين التطهر منها؛ لأن «**الطهور شطر الإيمان**»، وفى القرآن الكريم: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾، والماء الذى جعله الله أصل الحياة ووسيلة **التطهر يصفه القرآن الكريم بقوله**: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً**﴾، وقد ورد لفظ «طهر» ومشتقاته فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة لإيجاب طهارة النفس المؤمنة والبيئة الإنسانية فى الظاهر والباطن.

جاء فى الحديث الشريف «**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد، وقارعة الطريق، والظل**»، ولقد أطلق الحديث على هذا السلوكيات «ملاعن» لأنها تسبب لعن الناس لمن يفعلها. كذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البول فى الماء، فقال: «**لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يتوضأ منه**»، وقد ثبت أن هذه الأعمال

وسطية الإسلام منهج للحياة المتوازنة فى كل شىء.. بالقصد وعدم الإسراف، والاعتدال وعدم الجور.. والبيئة هى الأولى بذلك

والتصرفات تسبب الأمراض الوبائية والمتوطنة وتساعد على انتشارها، والنهى عنها ينسحب على جميع الملوثات الأخرى التى تضر بصحة الإنسان والحيوان وبقية المخلوقات.

وفى مجال العناية بالبيئة وعناصرها نجد الإسلام ينهى عن تبوير الأرض وتركها بغير زراعة، ويدعو إلى الاهتمام بالزراعة وبيان الغاية منها بالنفع للإنسان والحيوان، ففى الحديث: «**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**».

انعكاس المنهج الإسلامى على واقع البيئة:

كما أمر الإسلام بالرحمة والإشفاق على الحيوانات باعتبارها أحد العناصر الحية فى البيئة. وقد رويت أحاديث عديدة فى هذا الأمر، منها قوله -صلى الله عليه وسلم-: «**عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض**».

ويحدد الخليفة عمر بن عبد العزيز ثقل الأحمال التى تحملها الإبل

على شاطئ النيل.. يفعل هذا وهو فى الشام فيقول: «بلغنى أن بمصر إبلاً ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل».

وانعكست هذه الرحمة على الحيوان فى أرض الإسلام، فكانت هناك أوقاف مخصصة لإطعام الحيوانات الضالة وعلاجها وشراء الحبوب الغذائية للطيور، وما زال هذا التقليد متبعًا حتى الآن فى الحرم المكى، يشترى الناس القمح ويلقونه على أرض المسجد ليلتقطه الحمام الذى يعيش بأعداد كبيرة هناك آمنًا على نفسه قريبًا من الإنسان يعيش معه فى سلام.

بل إن الإسلام ينهى عن الإفساد فى البيئة حتى فى أوقات المعارك والجهاد ضد الأعداء، فيقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- آمرًا جنده: «**لا تقتلوا امرأة ولا وليدًا ولا شيخًا ولا تحرقوا نخيلاً ولا زرعًا**».

حتى بالنسبة لتلوث الضوضاء الذى أحست به البشرية حديثًا، نجد أن الإسلام قد سبق إلى النهى عن الضجيج بأسلوب بليغ ينهى عن رفع الصوت ويقبحه فى صورة منفرة محتقرة، وذلك فى قوله تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ابنه: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾.

محاكم إسلامية للحفاظ على البيئة:

جاء فى كتب السنة عن عبد الملك ابن قرير عن محمد بن سيرين: أن

العلم والفكر اللذان لا يعمر بهما الكون ولا تصلح بهما البيئة، ولا ترقى بهما الحياة فى جانبها الروحى والمادى- قاصران وضررهما أكبر من نفعهما

رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال: إنى أجريت أنا وصاحب لى فرسين إلى ثغرة فى الطريق فأصبنا ظبيًا ونحن محرمان، فما ترى؟ فقال عمر لرجل إلى جنبه: تعال حتى أحكم أنا وأنت، قال: فحكما عليه بعنز، فولى الرجل وهو يقول: هذا أمير المؤمنين لا يستطيع أن يحكم فى ظبى، حتى دعا رجلاً يحكم معه، فسمع عمر قول الرجل، فدعاه فسأله: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال: لا، قال: فهل تعرف هذا الرجل الذى حكم معى؟ قال: لا، فقال عمر: لو أخبرتنى أنك تقرأ سورة المائدة لأوجعتك ضربًا ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه: ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ**﴾ [لقمان: ٩٥]. وهذا عبد الرحمن بن عوف.

وتبين هذه القصة بوضوح قاطع وجود محكمة إسلامية على أعلى مستوى؛ للنظر فى التعدى على الحياة البرية من قبل رجلين محرمين قتلا ظبيًا بمكة، وأن هذه المحكمة حكمت على المخالفين بغرامة يشترى أحدهما بثمنها عنزًا ويذبحها ويتصدق بلحمها على الفقراء والمساكين بالكعبة. وقد قضى السلف فى النعامة ببدنة، وفى الحمار الوحشى، وبقر الوحش، والأيل (ذكر الوعول)، والأروى (أنثى الوعل)، فى كل واحد من ذلك ببقرة، وفى الوبر والحمامة والقمرى والحجل (الدجاج الوحشى) فى كل واحدة من هذه بشاة. وفى الضبع بكبش، وفى الغزال بعنز، وفى الثعلب بجدى، وفى الأرنب بعناق (الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول)، وفى اليربوع بعنزة.

الحفاظ على البيئة تراث إسلامى كما هو تشريع سماوى:

ويزخر التراث الإسلامى بمؤلفات عديدة حول البيئة وسلامتها من جوانب مختلفة. فعلى سبيل المثال، ألف الكندى رسالة فى «الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء»، ورسالة فى «الأدوية المشفية من الروائح المؤذية»، ووضع ابن المبرد كتابًا أسماه «فنون المنون فى الوباء والطاعون»، وتكلم ابن سينا بالتفصيل فى كتابه «القانون» عن تلوث المياه بشكل عام وكيفية معالجة هذا التلوث لتصبح المياه

صالحة للاستعمال، كما أنه وضع شروطًا تتعلق بطبيعة الماء والهواء المؤثرين فى المكان عند اختيار موقع ما للسكن.

أما الرازى فقد نشد سلامة البيئة عندما استشاره عضد الدولة فى اختيار موقع لمستشفى ببغداد، فاختار الناحية التى لم يفسد فيها اللحم بسرعة. وكانت المستشفيات بصورة عامة تتمتع بموقع تتوافر فيه كل شروط الصحة والجمال، فعندما أراد السلطان صلاح الدين أن ينشئ مستشفى فى القاهرة اختار له أحد قصوره الفخمة البعيدة عن الضوضاء وحوله إلى مستشفى ضخم كبير هو المستشفى الناصرى.

وقد ألف الرازى رسالة فى «تأثير فصل الربيع وتغير الهواء تبعًا لذلك»، بينما تحدث أبو مروان الأندلسى فى كتابه «التيسير فى المداواة والتدبير» عن فساد الهواء الذى يهب من المستنقعات والبرك ذات الماء الراكد. وجاء فى كتاب «بستان الأطباء وروضة الألباء» لابن المطران الدمشقى ما يؤكد ضرورة مراعاة تأثير البيئة عند تشخيص المرض، فقال: «ينبغى للطبيب إذا قدم على مداواة قوم فى بلد، أن ينظر فى وضع المدينة، ومزاج الهواء المحيط بها، والمياه الجارية فيها، والتدبير الخاص الذى يستعمله قوم دون قوم، فإن هذه هى الأصول، ثم بعدها النظر فى سائر الشرائط». وهذه رؤية متقدمة فى «علم الطب البيئى».

وكتب ابن قيم الجوزية فى كتابه «الطب النبوى» فصلاً عن الأوبئة التى تنتشر بسبب التلوث الهوائى، والاحتراز منها، وقد لخص ذلك الفصل بقوله: «والمقصود: أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون، وأن فساد جوهر الهواء هو الموجب لحدوث الوباء، وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة: لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه، كالعفونة والنتن والسمية، فى أى وقت كان من أوقات السنة، وإن كان أكثر حدوثه فى أواخر فصل الصيف، وفى الخريف غالبًا؛ لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها فى فصل الصيف، وعدم تحللها فى آخره. وفى الخريف لبرد الجو وردعة الأبخرة والفضلات التى كانت تتحلل فى فصل الصيف، فتنحصر فتسخن وتتعفن: فتحدث الأمراض العفنة، ولاسيما إذا صادفت البدن مستعدًا قابلاً، رهلاً، قليل الحركة، كثير المواد. فهذا لا يكاد يفلت من العطب».

ويتضح من هذه الأمثلة التى ذكرناها أن علماء الحضارة الإسلامية تناولوا المشكلات البيئية فى أجزاء أو فصول من مؤلفاتهم.. ولم يقف الأمر عن هذا الحد؛ حيث نجد من بين علماء المسلمين من رأى ضرورة معالجة الموضوع فى كتاب مستقل ليؤكد أهميته فى حياة الناس على مر العصور. فقد صنف محمد بن أحمد التميمى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كتابًا كاملاً عن التلوث البيئى وأسبابه وآثاره وطرق مكافحته والوقاية منه، وفصّل الحديث فيه عن ثلاثية الهواء والماء والتربة، وتبادل التلوث بين عناصرها، وجعل عنوانه: «مادة البقاء فى إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء».

وأوضح فى مقدمته الغرض من تأليفه بقوله: «وكان الباعث لى على تأليف هذا الكتاب والعناية بهذا الأمر، أنى نظرت حال علماء الأطباء، الساكنين بالأمصار الفاسدة الأهوية والبلدان المشهورة بالأوبئة، كثيرة الأمطار، التى يحدث بها عند انقلابات فصول السنة الأمراض القاتلة والطواعين المهلكة لأجل فساد أهويتها بمجاورة الأنهار الكثيرة المدود، والمدائن التى تحدق بها الغدران، ومناقع المياه الآجنة، والمشارب الكدرة، التى تتصاعد أبخرتها إلى الجو فتفسده وتغلظه، مع ما يعضد ذلك ويقويه من أبخرة الزبول ومجارى مياه الحمامات بها، وأبخرة الجيف من الحيوانات الميتة الملقاة فى أقنيتها وظواهرها وعلى ممر سالك طرقاتها، كأرض مصر ودمشق، والمدن التى تلى سواحل البحار ويعظم بها مدود الأنهار، مثل بغداد، والبصرة، والأهواز وفارس وسواحل بحر الهند، كعمان، وسيراف، وعدن، وما جرى مجرى هذه الأمصار العظام التى تجاور البحار وتخترقها الأنهار، وتحدق بها مناقع المياه الراكدة والجارية، وبخاصة ما كان منها منكشفًا لمهب ريح الجنوب مكتفلاً بالجبال وبتلال الرمال عن مهب ريح الشمال، فكان الأولى بالذين يتولون منهم علاج ملوكها، وخاصة رؤسائها، وعامة أهلها، أن تكون عنايتهم بمداواة الهواء الفاسد، المحدث لوقوع الأوبئة بها، الجالب الطواعين على سكانها، أولى وأوجب من عنايتهم بمداواة ما يتحصل بذلك من الأمراض المخوفة فى أجساد أهلها، وأن يصرفوا هممهم إلى ذلك ويفرغوا له نفوسهم».

التاريخ الإسلامى حافل بعقد محاكم.. طبقت فيها تشريعات الإسلام لكف أيدى المعتدين على البيئة

نصوص الشريعة الإسلامية تدعو إلى النظافة ومحاربة التلوث:

وهكذا، كلما أجلنا النظر فى نصوص الشريعة الأسلامية وصفحات التراث الإسلامى وجدنا منهجًا إسلاميًا حكيمًا ينهى عن التلوث والفساد بكل صوره وأشكاله، ويعوّل قبل كل شىء على رقابة الضمير الذى يحترم القانون الإلهى لخير الناس أجمعين.

وليس التلوث الذى تعانى منه البشرية اليوم فى مختلف النظم البيئية سوى مظهر من مظاهر الفساد فى الأرض الذى جلبه الإنسان لنفسه: ولو طبقت تشريعات الإسلام على الوجه الأكمل لما وصل الإنسان ببيئته إلى هذه الدرجة الخطيرة من التدهور، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فالبيئة -من المنظور الرسلامى- مرتبطة بتحمل الإنسان -دون غيره من المخلوقات- لأمانة الخلافة فى الأرض وترقية الحياة عليها حتى يستكمل حكمة الله من خلقه وخلقها، بعد أن سخر له كل ما فى الكون من نعم ظاهرة وباطنة لينتفع بها ويمجد بانتفاعها رب العالمين.

ولا يكون الإنسان جديرًا بحمل أمانة الخلافة إذا أساء استعمال هذه النعم التى تتكون منها عناصر البيئة، أو تصرف فيها على نحو غير مشروع، جريًا وراء منفعة خاصة، أو استسلامًا لأنانية مقيتة. فالخلافة تعنى أول ما تعنى تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيها، وبالعمل على إظهار عظمة الخالق وقدرته عن طريق الانتفاع الإيجابى بكل المخلوقات التى سخرها الله لخدمة الإنسان، ويتجلى ذلك فى قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ومعنى «واستعمركم فيها» أى جعلكم عمارًا تعمرونها وتسكنون بها، وهذا لا يتأتى إلا بأمرين: أولهما: أن تبقى الصالح على صلاحه ولا تفسده، والثانى: أن تصلح ما يفسد وتزيد إصلاحه. ولا شك أن فى الأمرين خير ضمان لحماية البيئة وسلامتها، وتحقيق التنمية واستدامتها.